السلك ينقطع ...

قصة بقلم فرحان بلبل

فتح عينيه ، واحس بنداوة طرية تهب عليه من صفاء الليل ، فانقلب على ظهره متطلعا الى السماء . ادرك انه ينام على الارض ،على سفح تل صغير يميل بجسده مع ميل السفح الخفيف فيمنحه انبساطا في النظر خلف موقع قدميه ليرى امامه امتدادا ارضيا لولا انطباق الليل لعرف الى اين ينتهي .

القمر يلمع براقا رغم انه هلال صغير ، والنجوم الدقيقة المتعالية في خضم السماء تبص بصيصا حادا لزجا يشد عينيه بخيوط حريرية ناعمة . حاول ان يرد نظره عن السماء الا ان الخيوط الشديدةالناعمة ظلت تحرك مقلتيه حركة دائرية تمسح القمر والنجوم ، وهذا بحد ذاته شيء غريب ، فهو لا يعي في ذاكرته انه اعطى النجوم والقمر بعضا من انتباهه . وكل ما هنالك نظرة خاطفة عجلى ترتد سريعا الى موطىء قدميه على الارض او تدرج الى الامام حتى يرى اقصى ما يمكن لعين ان تراه ، اما الآن ، فهو مشدود الى السماء ، والسكونحوله طاغ طغيانا هائلا .

يقول الناس ان القمر يوحي اليهم بذكريات وآمال . ولا شك انهم يخدعون انفسهم او يكذبون ، فهو ـ رغم امتداد النظر الى القمر وبعدها ـ لا يرى الا هذا الالتماع الكابي في جرم صغير تحسبه شطرا من مصباح كهربائي انفلت طائرا الى الاعالي ، حتى خطيبته الجميلة التي لم يرها منذ ثلاثة اشهر لم تتسلق خيوط الحرير الناعمة الدقيقة مرتقية درج السماء . وغمغم ، وبسمة ساخرة تحط على شفتيه « لن اجد شيئا في السماء » وانفتل على جنبه الايمن ليعود الى النوم ، الا ان سؤالا حادا صاخبا ابقاه على حاله « ماذا جرى له؟ وكيف اتى الى هنا ؟ » وتلفتحوله دون ان يرفع التصاق ظهره عن الارض « اين هم ؟» وحاول اختراق الظلام لامتار كثيرة عن يمين وعن شمال لعله يرى شيئا او ... أحدا ، ولكن .. لا احد .

واحس بخفق سريع لنبض قلبه . وارتد عقله بحدة عاجلة الى الوراء .

كل ما يذكره انه كان يصدر اوامره بشدة وصلابة ووضوح. فالطائرات المعادية تحلق في الجو تثز ازيزا متصلا ثاقبا للاذن .وجنوده الى جانبه يترجمون كلماته واوامره الى حركات سريعة منتظمة تطلق القذائف من فوهة المدفع الثقيل ، ولم يستطع ـ رغم حراجة الموقف وتوقد الذهن المتنبه على فوهة المدفع الغضبي ـ الا ان يشبه انتظام حركاتهم برقصة « باليه » دامية . كانوا قد خلعوا ستراتهم وظهرت قمصانهم الداخلية المغبرة البياض داكنة شاحبة ، والعرق ينساح على جباههم واذرعهم تحت وهج الشمس المتقافزة الشعاع .

كم ظل على هذه الحالة يصدر اوامره بينما جنوده ومدفعهم يترجمون الامر الحاسم الوجيز الى نار تلتهب ؟ لا يدري بالضبط مع انه يذكر تماما ان الشمس كانت قد بدات تنزلق سريعا نحو الاضواء اللامع . ثم .. وبلحظة واحدة ... انفجار صاعق قريبا منه ، ثم .. انغلاق للزمن والذكرى ، وها هو يفيق في احشاء الليل ليصل ما انقطع من خيط الاحساس بالوجود .

وحاول من جديد ان يترك القمر والنجوم ، وان يتكىء علىجنبه الايمن ، ولكنه لم يستطع، « أهو مصاب ؟ » وتصبب العرق على جبينه بينما كانت يده تتحسس مواضع جسده . وتنهد « لا جروح » وحرك رجليه ورفعهما الى أعلى ثم نزل بهما سالمتين . وضحك ، انهيرفعهما كما يرفعهما جنوده حين يؤدون بعض تمارين الصباح الرياضية ، وما يدري ان كان رفعهما جنوده حين يؤدون بعض تمارين الصباح الرياضية ، وما يدري ان كان رفعهما بشكل صحيح كما يطلب منهم ، على كل حال ، رجلاه سالمتان . وكذلك يداه . وهو واثق من سلامة بقية جسده لولا رضوض خفيفة ، ويكفي انتظام دقات القلبوسلامة التفكير ، اذن .. اغماء بسيط ونوم مريح وسكون يلف الليل . ويكفيه ذلك شعورا بالراحة .

وضحك من نفسه « شعور بالراحة » مع انه ينام على التراب،ما الذ السيكارة الآن ، ولكنه ترك دخانه في مكتبه عندما وصلتاول اشارة عن وصول الطائرات المعادية ، فلا عليه ، ساعة او ساعتانوينبلج الصباح ويعود الى مكانه فيعبث من الدخان ما شاء ويأتيه حاجبه « جمعة » يقدم له قدح الشاي .

«جمعة » أين هو الآن ؟ كان بعيدا عنه عشر خطوات فقط ، ومع انه ليس مكلفا باطعام المدفع النهم طعامه الناري القاتل فانهكان الى جانبه . انه يتبعه اينما ذهب ، لا تفارقه عيناه ابدا . حتى اذا اختبأ في الخندق ووضع يديه على رأسه الملتصق بكتفيه ، كان وجهه باتجاهه دائما . ومن كان يظن انه سيلتقي بجمعة ؟ ولكنها العسكرية .. ـ العسكرية !! كم جعلته يغير من عاداته ، وكم جعلته يكبت من عواطفه .

قبل استدعائه الى الخدمة . كان له اصدقاء يسمر معهم ،واحيانا يسكر ، وكانوا دائما يثرثرون في كل موضوع مع ان الفتيات يأخذن من ثرثرتهم المتلمظة الشغوفة اطول وقت . ثم ينهون سهرتهم بسلسلة طويلة من الضحك مترنحين متمايلين . وخطيبته ، كم يحبها . لميكن

يخفي عنها شيئا من قلبه وآماله ،بل ومخاوفه ولحظات ترددهوضعفه، يقولون ان الرجل يمثل القوة في عيني المرأة . وهذا الضوء في نظره، فكيف يعطيهاقلبه لتمنحه ثقتها اذا تمسك امامها دائما بمظهرالقوة ؟ صحيح انه لا يفهم في الحب شيئا ، ولا يعرف كيف يحلله ويرجعه الى اصوله واسبابه كما يفعل صديقه « حسان » مدرس الفلسفة الثرثار، الا انه يحب خطيبته وكفى . يرتعش عندما يراها ، ويبرق قلبه بنبض دفاق ، ويزلزل كيانه بلمسها . وهي ، ما ألذها .. مسام جسدها تتوفز عندما يتفحصها بنظراته الاكولة ، وهذا يكفيه . وليذهب مدرس الفلسفة الى فرويد وكل المجانين .

واطبق جفنيه قليلا ، الا ان الخيوط الحريرية الناعمة شدتهمامن جديد بلين ماكر . فهو في العسكرية ، وفي العسكرية امتنع عنالثرثرة حتى مع زملائه ، لانه يشعر بحجاب خفي رقيق يمنعه عن البوح باختلاجات صغيرة يراها تتسلل الى ضميره ، ومشيئته لم تعد تترنح في اخر الليل ، ولم يعد يهتم بآراء الفلاسفة حول الحب ، بلاصبح كثير الشرود يتساءل عن سر الحياة .. آه .. ما أحلى ان يعود الى رفاقه وسكرهم وسمرهم وترنحهم في الاهازيع الاخيرة من الليل . العسكرية .. ثلاثة اشهر لم ير خطيبته .. أف ..

واطبق عينيه كأن الخيوطالحريريةافلتت الجفنين المتعبين،ومال على جنبه ونام .

* * *

« سيدي الملازم ، سيدي الملازم »

الشمس البازغة الحادة لم تستطع ايقاظه وهي تكوّم شعاعها على جسده ، كأن غيبوبة تلفه بوشاح خدر ، و«جمعة» لا يجرؤ ان يقتحم عليه لذة النوم .

لقد ظلوا يفتشون عنه الليل بطوله .

المعركة استمرت حتى أطبق الظلام . ولم يكادوا يستجمعون انفاسهم حتى هبوا يفتشون عنه فلم يجدوه ، وظنوا في امره الظنون. ثم استكانوا الى الارض في يأس حزين يداعبه أمل كاذب ممزوج بالتعب والارهاق . ولكن جمعة ظل يدور ويدور ويئن دون ان يجد له اثرا . ثم عاد الى باب المكتب ، وقرفص ساهما شاردا . فلما أطل الصباح نهض كالمجنون يعاود البحث والتفتيش ، وحينما رآه تطلق وجهه بالفرح ، وتمتم بحلاوة «ما أغباني لماذا لم يخطر ببالي انه قد يكون على السفح الثاني للتل ؟ »

واقترب منه متفحصا متاملا وطيف من خوف يجعله يرتعد ، ولكن شفتيه ابتسمتا بمرح «الحمد لله» . وتقدم قليلا ليوقظه ، ثم تراجع خطوة ليراقب المتغلغل في سرير النوم على التراب الخشن ، وعلى جنبه الايمن كما يراه كل صباح . ويا لها من طريقة في النوم غريبة. بالضبط لا ينام على جنبه ، بل ينحني بكامل جسده ، فهو ليس نوما على الجنب وليس انبطاحا ، شيء ما بينهما اشبه بالأرجحة . لقد قال الرقيب مرة «ان الملازم ينام بشرود كما ينظر بشرود حينما يسرح ببصره الى بعيد . انها نظرة متأرجحة بعيدة عميقة كأن عينيه يشدهما من وسطهما سلك جامد ، لو ذهب السلك لسقطت العينان كرتين من دم يفور . وقد هز «جمعة» رأسه ، فهو لم يفهم شيئا ، ينام كما ينظر !؟ هه . هؤلاء الرقباء المثقفون ثرثارون يتكلمون بما لا يستطيع فهمه ، خاصة عندما يتجمعون بعيدين عن اعين الضباطوالجنود، وزاد الطين بلة ان احدهم يقرأ شعرا ، وجمعة يحلف بالخضر والنبي انه كاذب . لان ما يقرؤه لا يشبه على الاطلاق شعر «عنتر اخو شداد» الذي يترنم به ابو محجوب في القرية . الخلاصة هذا الرقيب يزعجه وان كان يحبه لخفة دمه . واذا كان لم يفهم ما قاله الرقيب عن نوم رئيسه فانه يرفض ان يوقظه احد الا هو . فهذا حقه المكتسب وعادته اليومية .

مرة رن الهاتف مبكرا جدا ، وتململ الملازم في فراشه ليرد ، فشعر جمعة بغضب جامح . كيف يجرؤ هذا الهاتف اللعين على تخليصه لذته الصباحية ؟ وهجم عليه وتناوله ومد يده الى الملازم وأيقظه «سيدي الملازم ، المقدم يريدك على الهاتف» وناوله السماعة ناظرا اليها نظرة تحد صارخ .

الجميع يلومونه على محبته للملازم ويصفونه بالكلب الذي يقعي على باب مكتبه ملبيا اية اشارة تصدر عنه ، وهو يقول لهم مدافعا عن نفسه «انه دقيق في اوامره عند مشاهدة الطائرات ويعطي اجازات بكثرة ، فماذا تريدون اكثر ؟ » ولكن الخبثاء ردوا عليه ضاحكين «منذ متى لم تأخذ اجازة ؟ » واحمر وجهه الا انه صرخ في وجوههم منتصرا «وأنتم الا تأخذون اجازات اكثر من بقية القطعات ؟ » وماتت الضحكة على شفاههم .

الحقيقة انه لا يأخذ اجازات . آخر واحدة كانت منذ تسعة اشهر . ورغم الحاح الملازم عليه فهو يأبى . عندما رفض الاجازة اول مرة تطلع اليه الملازم بدهشة وصرخ في وجهه بحدة «عسكري لا يريد اجازة ؟ هذه عجيبة» فانسل خارجا . وفي المرة الثانية سأله «أتريد اجازة ؟» فانسل خارجا . وآخر مرة قال له «عندما تريد اجازة اخبرني » .

لماذا يأخذ اجازة ؟ لم يكن له الا امه . وقد ماتت منذ عام ، وليس له في قريته ارض . كانيشتغل فلاحا عند هذا وذاك ، فلما ماتت امه لم يبق له في قريته رابط ، وقد استعاض عن رفاق القرية بالملازم . انه يغمره بالحنان والثقة رغم صلابة علاقته به ورغم انه لا يتكلم معه كثيرا . الواقع ان الملازم لا يتكلم مع الاخرين كثيرا . وأحيانا يرى في عينيه بريقا لم يكن يراه الا في عيني امه . عندما اصابته الحمى مرة سهر الملازم عليه كل الليل ، ومن يومها لم تبتعد عينا «جمعة» عنه.

***

«سيدي الملازم ، سيدي الملازم»

عجيب !! عادته ان يفيق من النداء الاول . وارتجف صوته في النداء الثالث ، ثم مد يده ترتعش على كتفه ، وحرّكه فأدار وجهه نحوه مغمضا نصف عينيه المنبهرتين بنور الشمس . «ما لك ؟ لماذا انت مخنوق الصوت تحرك شفتيك ولا تنطق ؟» وفتح جمعه عينيه في دهشة وخرج صوته في شبه بكاء «سيدي» .

عندما قفز الملازم عن الارض كان يعلم تماما انه لم يعد يسمع .

***

بعد شهر لم تستطع يد الطبيب الماهرة ان ترد السمع الى الاذن المثقوبة ، فترك المستشفى وعاد الى المعسكر . لم يذهب الى بيته ، ولم يسع وراء رفاقه . بل انه اهمل الرد على رسائل اهله ، ولم يحتفظ من صداقاته الا بالصديق الاخير الذي تعثر به في ساعة شؤم: القمر تحوطه النجوم .

طوال هذا الشهر كان يخرج الى حديقة المستشفى ليلا . ينبطح على ظهره ويتامل النجوم ، فالسكون الطاغي طغيانا هائلا يسبغ على صممه لذة كبرى في الليل ، اذ لا احد يكتب له على دفتره الذي اصبح رفيقه الدائم .

في البداية كانوا يفهمونه ما يريدون بحركة الشفاه . ولكن الوجوه كانت تتغير ملامحها تغيرا غريبا ، فهي تزداد طولا ونحافة ، او قصرا وعرضا ، والعيون تكاد تقفز من حفرها تاركة وراءها فراغا مخيفا، والأنف يهتز مفلطحا في احمرار خشن ، وزوايا الفم تروح وتجيء بين

الناصرية

عدد ممتاز من مجلة ((الاداب)) يضم دراسات عميقة وضافية عن ((الناصرية)) في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وثيقة هامة عن فكر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وعمله .

يصدر في مطلع ١٩٧١

الابتعاد الاقصى والاقتراب الاقصى في حركة تشنجية مرعبة ، كانت الوجوه تبدو مشوهة قبيحة فتمرضه ونضنيه كأنها آلات تعذيب ضخمة تنتقل مسننتاتها بثقل بطيء يطحن اضلاعه ممزقة سكون العالم حوله بصرخات مهووسة ، كانت الوجوه تبدو له ضريبة غليظة لا يستطيع أداءها الا من هدوء عقله . وهكذا اصبح الدفتر رفيقه الدائم رافضا حركة الشفاه من اي انسان .

طوال هذا الشهر في المستشفى لم يكن يفكر بشيء ، كأن فقده حاسة السمع افقده الاحساس بالحياة . وكأن الصمت العريض الموحش يطفى على كل شعور .

اين مخاوفه القديمة من قنبلة تهوي عليه ؟

كم كانت المفارقة اليمة عندما يظهر امام جنوده شجاعا بينما عروقه من الداخل ترتجف بالخوف .

اين ضيقه من البعد عن الخطيبة والاصحاب ؟ وتمنيه اللذيذ ان يسهر معهم وينظر الى مسام جسدها المتوفزة ؟

لم يعد يشتاق الى ثرثرتهم ولغوهم ، وخطيبته تتراءى له شبحا عتيقا .

اين الرغبة الدائبة في كبت آلامه عن زملائه ؟ اين ذاك السيف الصقيل المرهف الذي كان ينفرز في حلقه كلما تمرد في اعماقه على العسكرية القاسية الجافة ؟

لقد كان السيف ينفرز في حلقه عندما يتمرد . كأن انفصاما قلقا بين ادائه الواجب وشعوره الانساني يحيل السيف الحاد الى سلك من لهب يلتف حول عنقه .

كل ذلك ولى ولم يبق الا الهدوء والصمت والاطمئنان .

لقد تألم كثيرا من هذا الانفصام الرهيب ، ولم يكن يجد دواء له الا ان يتسلل في الليل الى جانب المدفع يلصق على حديده البارد جبهته الملتهبة ، وشيئا فشيئا اصبح المدفع موضع اسراره ، اليه يهمس ويتكلم ويشتم ، وعندئذ يرتاح . لقد أدرك منذ زمن بعيد ان المدفع اصبح قدره ، ولكنه لم يظنه سيصبح قدره الأصم .

على كل حال ، لم يبق الا الصمت والهدوء والاطمئنان .

أهو شعوره بأداء الواجب هو الذي يمنحه الثقة العمياء يروعه السكون ؟ ام هو ايمانه بخروجه من الحياة العادية واقتناعه بواقعه الهامشي الجديد ؟ لا يدري بالضبط . المهم ان السيف الصقيل المتحول الى سلك لهيبي لم يعد يمر في حلقه ، وقبل ان يرى احدا في المعسكر سيذهب الى المدفع يلصق على حديده الاسود الملتمع جبهته الجامدة .

***

عندما هبط من السيارة متجها نحو مكتبه وجد جمعة مقعيا كالكلب الحزين . وحينما رآه كاد ينهار من فرحته . لا بد انه يرحب به ، ففمه يتحرك بسرعة ، آه ... لماذا يسكت ؟ لعله ادرك انه لا يسمع . اوه ... ها هو يزيد من حركة الشفاه ليفهمه ما يريد . وجهه يصبح قبيحا بشكل شنيع ، وكاد يدفع اليه دفتره ، ثم توقف. جمعة لا يعرف القراءة والكتابة .

ونظر طويلا الى الوجه الطافح بالفرحة القبيحة ، ثم دنا منه وعانقه .

وأحس جمعة ان دموع الملازم تنهمر .

حمص

فرحان بلبل